ثورة على ابن سينا
أو عقلية «الأركانا»

للدكتور جواد علي

لقد كان صاحب هذه الثورة ومؤجج نارها طبيب سويسري وفيلسوف أوربي عاش في مدينة « باذل » Basel عاصمة العلم في المقاطعات السويسرية الألمانية في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر للميلاد[1] . طبيب كانت له نفس تواقة على التنقل من مدينة أوربية إلى مدينة أوربية أخرى ، ومن جامعة أوربية إلى جامعة أوربية أخرى في سبيل طلب العلم والحقيقة ؛ في سبيل إدراك كنه الإنسان وسر هذا الكون وعظمته

ولكنه كان حيث هبط في أرض أو حل في مدينة يجد الكتب اللاتينية العويصة المترجمة عن العربية أو عن اليونانية تحتل المكان الأسمى في عالم علم ذلك الزمان ؛ ويجد الأطباء والعلماء يتجادلون في أبحاثهم وفق القواعد المنطقية المترجمة عن العربية أو اليونانية رأساً . يدونون آراءهم في الكون والإنسان وفق ماجاء في كتب ابن سينا ولاسيما كتاب « القانون في الطب » وكتب أرسطو وجالينوس . لم يكونوا يحكمون عقولهم ، أو يستخدمون التجارب في أبحاثهم ، أو يجيلون النظر في الأفق البعيد . وهذا ما ساءه جداً ودفعه إلى إعلان عصيانه وتمرده على كتب العرب واليونان معاً[2]

وقد عرف ذلك الطبيب الفيلسوف باسم الطبيب المتنقل «بارسلس» ؛ أما اسمه الحقيقي فكان يتركب في الواقع من بضعة أسماء ضمت بعضها إلى بعض على عادة ذلك الوقت كان يدعى أوروبلس تيوفراستس بارسلس بومباستس فون هوهنسهايم (Aureolus Theophrastus Paracel Sus Bombastus Von Hohens Heim).[1]

دعي بالطبيب المتنقل لأنه كان مشغوفاً بالأسفار محباً للتنقل من محل إلى محل ومن مكان إلى مكان . ولقد كون فيه هذا الميل عقلاً يختلف جداً في طراز تفكيره وأسلوب اشتغاله عن طراز تفكير واشتغال عقول علماء ذلك الوقت . جمّع في أنسجته وخلاياه خلاصة الثقافات الأوربية المختلفة والنزعات الثورية التي بثتها النهضة الأوربية على القديم البالي ، وخلاصة النزعات العملية التي بثتها التجارب العلمية التي بدأ يقوم بها علماء الطب والطبيعة في ذلك الحين . فشك في مقدرة كتب ابن سينا الطبية والفلسفية ، وتزلزل إيمانه بمقدرة كتب أرسطو أو أبقراط أو جالينوس على إنماش حياة الإنسان من الناحيتين الروحية والمادية . ونادى في المجتمعات العلمية وعلى رؤوس الأشهاد أن عصر ابن سينا واليونان يجب أن يزول ، وأن أياماً جديدة يجب أن تحل محل تلك الأيام[2]

كانت فلسفة ابن سينا فلسفة هادئة ؛ وكذلك كانت فلسفة حكماء اليونان لم يكن فيها ما يبعث على المجازفات والمغامرات والبحث عن الأسرار ومجاهل الأرض . بينما كانت أوربا تتمخض عن حركة جديدة ، هي حركة تسخير العلم في خدمة الإنسان والاستفادة من الطبيعة في سبيل رفاهية ابن آدم . كانت كلمة « الأركانا » Arkana[3] من أبرز الكلمات وأحلاها في قاموس علم ذلك الزمان . وكلمة أركانا تدل على معان جمة عميقة تدل على المادة السرية التي يمكن بواسطتها تحويل أي معدن خسيس إلى معدن ثمين[4] . ولا يستغرب صدور هذا الميل المادي

(١) ولد في سنة ١٤٩٣ وتوفي في سنة ١٥٤١ م ، راجع عنه كتاب سيدهوف وعنوانه K. Sudhoff Thophrastus ParaceLsus Sein Lepen und Seine Persönlichkeit 1903. وكذلك كتابه الموضوع في نقد حياة بارسلس وقد طبعه في مجلدين بين سنة ١٨٩٤ — ١٨٩٨ والكتب التي ألفها كل من F. Strunm في عام ١٩٠٢ و F. Gundolf في مجلدين في عام ١٩٢٨ و F. Peukert في عام ١٩٢٨ م أيضاً

(٢) راجع كتاب Ceschichte der Philoso الفيلسوف الشهير كارل فورلندر K. Vorländer ص ٢١٠

(١) راجع كتب التراجم المذكورة وكتاب Scherr وعنوانه : Deutsche Kultur Und Sittengeschichte ص ٣٦٠ وكذلك كتاب « قواعد تاريخ الفلسفة » الفيلسوف الشهير وندلبند Windelband ص ٣٠٩ ، ٣١٢

(٢) راجع كتاب ألفريد روزنبرك وعنوانه Der. Mythus ص ٢٠١

(٣) وهي كلمة لاتينية معناها المقصود المادة السرية ، وتدل على نفس مدلول « حجر الفلاسفة » في اللغة العربية

(٤) راجع Scherr Deutsche Kultur s, 360

الجشع من إنسان ذلك الوقت . فقد قلب القرن الخامس عشر العالم رأساً على عقب . كدّس الذهب والفضة فى بلاط ملوك البرتغال والأسبان ، وحرم الشعوب الأوربية الأخرى من مصادر القوت والثروة . ووجد حملة سر « الأركانا » فى قصور الأمراء وملوك أوربا مرتزقاً حسناً جداً . كانوا يجوبون عواصم أوربا ليعرضوا على سادتها آخر ما وصل إليه علمهم عن هذه الكلمة السحرية مشوقة الأغنياء . وكان أبرعهم وأشهرهم Georg Honauer . الذى تمكن بواسطة بضاعته فى علم (السيمياء[1]) وطلاقة لسانه ، من السيطرة على عقل الأمير (فردريك) أمير ورتمبرك فى عام ١٥٩٧ م ومن ابتزاز أموال الأمير بلا حساب ، لتحويل النحاس إلى المعدن الثمين الذهب . وقد سطر لنا عصر بارسلس عشرات وعشرات أمثال هذا العالم السيميائى الشاطر[2]

كانت « الأركانا » رمز عقلية الجيل الجديد ، ذلك الجيل الذى سخر من عقلية من تقدمه ، لأنها فى نظره عقلية قديمة آسنة ذات تفكير قديم . كانت تؤمن بالخرافات وبزخارف القول وما جاء فى الأساطير . وما الأركانا فى نظره سوى ثورة جديدة على العصور القديمة وعلى ما أنتجته تلك العصور

ولكن الجديد فى عقلية الأركانا حقاً هو ثورة الفرد على الطبيعة وثورة الإنسان النشيط على الإنسان المتزن الهادئ ، ثورة الجرمانية على العربية واللاتينية[3]

ولكى يبرهن ذلك الإنسان الجديد على أنه إنسان جديد فى كل شىء . إنسان عملى حر فى إرادته وتفكيره فرّق بين علوم الأوائل وعلوم الأواخر ، بين علوم الأجيال التى سبقت القرن الخامس عشر وبين علوم الأجيال التى ظهرت بعد هذا القرن . سمى علم السحر القديم مثلاً « علم السحر الأسود »[4] ، فميزه عن علم السحر الجديد الذى ابتدعه وسماه « علم السحر الأبيض »[1] . وعلم السحر الأبيض فى نظر إنسان ذلك الوقت علم جديد عملى مجرد عن الأباطيل والخرافات ؛ وقد ضن هذا الإنسان على القدماء حتى فى مصدر العلم فقال : إن مصدر علمه السماء ، أما مصدر علم القدماء فكانت الأرض[2]

وما دام مصدر السحر الأبيض السماء ، فلم لا تكون للأجرام السماوية ذاتها يد فى مقدرات الإنسان ؟ آمن إنسان الأركانا بفعل البروج والأفلاك فى مستقبل الإنسان ، ولكنه لم يؤمن كما آمن الأولون . نعم آمن بقدرة البروج والأفلاك ، وأيقن بأهمية علم التنجيم ليتمكن بواسطة أسرار هذا العلم من معاكسة تأثيرات ما فى السماء ، وليسخر قوى البروج الخفية فى صالح الإنسان . أما الإنسان الأول ، فقد آمن بها إيمان رجل مستسلم للمشيئة والأقدار يرجو رضا القوى الخفية لتجلب إليه السعادة والرفاهية

رأينا تأثير السماء على الإنسان ، فلم لا يكون للأرض نفس هذا التأثير على الإنسان ؟ نعم ، للأرض إذاً أثر هام على سكان الأرض ، وللانسان إذاً أن يبتدع علماً يقاوم تأثير هذه الأرض[3] ، بل للأرض نفس الأثر ، حتى على ما فى بطون الأرض ، فإذا ما تمكن الإنسان من اكتشاف سر هذا الأثر ، تمكن من إيجاد العلاج الناجع لمقاومة تأثير الأرض . وقد بحث الإنسان عن المادة السرية التى يمكن بواسطتها تحويل المعادن الخسيسة إلى معدن نفيس ، وتلك المادة المطلوبة السرية هى حجر الحكماء أو الفلاسفة كما كانوا يطلقون عليها فى القرن الخامس عشر للميلاد Steru der Weisen[4] تؤثر على حياة الإنسان مجموعة قوى أخرى على رأسها « روح الإله العالمية » Gottliche Weltseelle[5] التى تخللت جميع أجزاء هذا الكون ، وحلت فى كل شىء ، فأصبح الكون هو هو الكون ؛ وما الإنسان فى نظر بارسلس سوى « العالم الأصغر » Mikro Kosmos الذى هو صورة مصغرة « للعالم الأكبر » Marko Kosmos[6]

(١) ليتميز هذا العلم عن علم الكيمياء

(٢) راجع كتاب الدكتور كبور D. Gebauer وعنوانه Deutsche Kulturgeschichte ص ٨١

(٣) راجع Der Mythus ص ٢٥١

(٤) راجع Du Prel Die Magie 1912, Schmidt Phi. wort. و Levi, Gesch der M. 2 Bde 1926 s, 386

(١) راجع Dr. Gebauer Deut Kultur s, 81 والمراجع السابقة

(٢) راجع Walter Schönfelder Phile im Überblick 1928 s, 21

(٣) Othmar Spann Philo Spiegel s, 275 271

(٤) Dr. Gebauer s, 81

(٥) نفس المصدر ص ٨١

(٦) Aster Gesch der Philo s, 175

وقد أسبغ صاحبنا على نظريته هذه ثوباً من أثواب الحلولية التي ترد في الصوفية الإسلامية أيضاً [١] وقد كان لها صدى بعيد في أنحاء أوربا ، أثرت على أفكار فلاسفة الطليان والألمان والإنكليز وغيرهم أمثال كيور دانو Ciordano [٢] وكامبنيلا Campenella [٣] وتيليزيو Telesio [٤] وروينشلين Reuchlin [٥] وبرونو ميلنشوتن Bruno Melanchton [٦] وأكريبا فون نيتيسهايم Agrippa von Nettesheim [٧] وهرمان لوتسه الفيلسوف الألماني الشهير (١٨١٧ — ١٨٨١ م) في القرن التاسع عشر للميلاد [٨] قال بارسلس وفي العالم الأصغر وهو الإنسان قوى بنائية روحية تقاوم الأرواح الخبيثة التي تكون في الخارج وتساعد على بناء الجسم ودوام اتصاله بالعالم الأكبر ، وما العالمين سوى وحدة واحدة لا تتجزأ لذلك ، فأنا العالم والعالم أنا [٩] وقد سمى هذه المادة Archeus من كلمة Arche اليونانية ومعناها المادة الأساسية أو الأساس . وكان الفيلسوف اليوناني أنا كسمندو قد استعملها لتدل على هذا المعنى [١٠] والعلم الذي يبحث عن هذه المادة هو أشرف العلوم ؛ وحيث أن الطب هو العلم الباحث عنها ، لذلك كان علم الطب هو أشرف العلوم طراً وقد شرفه حتى على علم اللاهوت [١١]

(١) راجع كتب الأستاذ ماسنيون عن الحلاج و Max. Horten في كتابه عن الفلسفة الاسلامية ، وكذلك بوير وغيرهم

(٢) فيلسوف إيطالي حر التفكير كان من المعارضين للكنيسة (١٥٤٨ — ١٦٠٠) . راجع Kuhlenbeck 1913 و Riehl 1900 وشميد ص ٨٩

(٣) فيلسوف إيطالي ولد في عام ١٥٦٨ وتوفي في عام ١٦٣٩ راجع كتابه « مملكة الشمس » وقد طبع عام ١٩٠٠ م

(٤) فيلسوف إيطالي كذلك من الفلاسفة التجريبيين ، ولد عام ١٥٠٨ وتوفي عام ١٥٨٨

(٥) من الانسانيين وقد حكم عليه بالهرطقة (١٤٥٥ — ١٥٢٢) راجع Geiger 1871

(٦) فيلسوف تأثر بالمبادئ التيوسوفية الشائعة في ذلك العهد

(٧) طبيب وفيلسوف ، وكان من المعتقدين بالسحر ، وكان يسخر من علوم زمانه (١٤٨٦ — ١٥٣٥) وقد ترجمت كتبه إلى الألمانية

(٨) (١٨١٧ — ١٨٨١) فيلسوف وعالم فسيولوجي ؛ راجع كتبه

(٩) وهي فكرة الحلولية . راجع Arthur Eloesser وعنوان كتابه (تاريخ الأدب الألماني) ص ٣٤ ، ٣٥ ج ١

(١٠) راجع Schmidt Philo s, 39

(١١) K. Vorländer s, 210

ومن واجب الطبيب تنظيف هذه المادة مما قد يتعلق بها من الأرواح الخبيثة وذلك بواسطة العقاقير والأدوية المفيدة . وقد حضر الطبيب الفيلسوف قائمة بأسماء العقاقير والمشروبات المعدنية والأدوية السرية التي تنفع لمقاومة الأمراض النفسية والجسمية معاً . وما الأمراض في نظره سوى صراع بين الـ Archeus وبين الأرواح الخبيثة والقوى الخارجية المحيطة بالإنسان [١] . وبقدرة هذه العقاقير والمواد السحرية يستطيع الطبيب الذي هو أقرب مخلوق إلى الله من تنظيف الروح والجسد من الأدران ومن رفع مستوى البشرية إلى مصاف الأرواح السماوية العليا ، وبذلك يتم الاتصال بين « العقل الأول » أو « الروح » وبين العقل الثاني وهو الإنسان . ولذلك كانت لهذه الفلسفة شهرة عظيمة بين رجال التصوفة من الأوربيين ولا سيما الألمان منهم ، فظهر حلاجهم وهو يعقوب بوك Jakob Boehme [٢] ؛ وظهر فالنتين وأيكل Valentin Weigel وظهر أمثال لهذين المتصوفين ينادون بالفناء والاتحادية [٣]

وبعد أن أتم بارسلس وضع قائمة عقاقيره السحرية أججّ في ليلة عيد الغفران من عام ١٥١٧ ناراً عظيمة في حفل رهيب وتقدم في موكب يتبعه تلاميذه والمعجبون بآرائه يحمل بيديه « إنجيل الاطباء » وهو كتاب « القانون في الطب » لابن سينا « لوثر الأطباء » كما كانت أوربا تسميه Luther der Arzte ؛ وبعد خطبة وحفلة دينية مؤثرة ندد فيها بآراء ابن سينا وزعماء الطب من العرب واليونان ، ألقى بكتاب القانون في النار معلناً بذلك دخول أوربا في عصر تفكيري جديد . ولكنه قوبل من الناس بازدراء عظيم واضطرت بلدية الدينة إلى إخراجه من مدينة « باذل » لتجاسره على كرامة أعظم طبيب عرفته العصور [٤] —

اجتمعت في بارسلس سذاجة القدماء وتفكير المحدثين . كان

(١) نفس المصدر

(٢) كان من أشهر متصوفة الألمان وهو حاول يفرق بين ظاهر الشريعة وبين الحقيقة على مثال متصوفة المسلمين . راجع كتاب فولينذر ص ٢١٩ ولد عام ١٥٧٥ وتوفي عام ١٦٢٤ للميلاد

(٣) ولد هذا المتصوف عام ١٥٢٣ وتوفي عام ١٥٨٨ . راجع فورليندر ص ٢١٨

(٤) تجد القصة مفصلة في تراجم حياة بارسلس ومختصرة في كتاب الفيلسوف Vorländer ص ٣١٠